الفصل الثاني

حتميـــــة المـــوت

الفصل الثاني

حتمية المـــوت

أولاً: في القرآن الكريم:

١- قانون الموت:

حتمية الموت، قضية بينة بنفسها. لكن لا يفوتنا أن ننظر كيف عالجها القرآن الكريم، الذي هو تنزيل من لدن حكيم حميد، وكيف جعلها حجر الزاوية في بناء وعي بالحياة سليم، يهدي إلى الرشد، ويقوم من الزيغ ويقود إلى صلاح البشرية بعامة:

في البدء كان الله ولا شيء معه، هو الأول والآخر والظاهر والباطن: «الأول فليس قبله شيء، والآخر فليس بعده شيء، والظاهر فليس فوقه شيء والباطن فليس دونه شيء، الأول والآخر مستغرقا كل حقيقة الزمان، والظاهر والباطن مستغرقا كل حقيقة المكان»[(١)]. وهو سبحانه خالق كل شيء، وله ملك كل شيء، وإليه تصير الأمور: الحركة والسكون، الفرح والحزن، الضحك والبكاء، الموت والحياة، قبل أن توجد كل مادة، وبعد أن وجدت، لا تسود إلا قوانينه تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾ [الإسراء: ٤٤].

ولقد أعطانا أبو البشرية نموذجا حياً، ومثالا كاملا للاستسلام المطلق لله وهو يعلن في بداية الوجود الإنساني على ظهر هذا الكوكب ﴿**إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وإذا الكون كله ملكه وملكوته سبحانه يصرفه كيف يشاء؛ بإرادته المخصصة ومقدرته المبدعة، بقوانينه الإلهية المحكمة التي نعرف بعضها ونجهل معظمها ومن بين هذه القوانين «قانون الموت» قدَّره سبحانه وجعله ضربة لازب لكل حي سواه في هذا

---

(١) في ظلال القرآن جـ٢٧ / ٧١٨.

الكون؛ «فقانون الموت» من أهم السمات المميزة للكائنات الحية التي تعيش على ظهر هذا الكوكب الصغير، وما عساه أن يكون ثم من حياة على الكواكب الأخرى – «كل شيء هالك إلا وجهه»- والإنسان ليس استثناء – ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠] حتى لقد خيل لبعض العجلى أن ما سوى الموت في هذه الحياة ليس إلا لمعة برق أو بخار ماء ما أسرع ما يتلا شيء فصاح في جزع من هول ما لاح له: «لدوا للموت وابنوا للخراب».

ويصور الله سبحانه، قصر الحياة بهذه الصورة السريعة المعبرة:﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: ٤٥]. فإذا شريط الحياة ينتهي كله في هذه الجمل القصار، وفي هذه المشاهد الثلاثة المتتابعة: «ماء أنزلناه من السماء» فاختلط به نبات الأرض«و» أصبح هشيما تذروه الرياح». ألا ما أقصرها حياة »![1].

ولكن هذه الحياة القصيرة الأمد وسنيها القليلة العدد – إذا أخذت بمنظور فردي – تطول وتطول بمقدار ما يطول عمر البشرية كلها، إذا أخذت بهذا المنظور الكلي، وأنت واجد مجتمعات وحضارات، لا تكاد تنهار هذه حتى تقوم تلك.

وكما تطوَّرت البشرية – رغم الموت – تطورت أنواع الحياة الأخرى على ما تخللها من تغير واستحالة، وموت وفناء، بل إن الأرض نفسها لتموت وتحيا والله وحده – على كل حال – هو المحيي والمميت في الحقيقة؛ وإن بدت لنا من وراء ذلك علل وأسباب: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤] وقد تكرر هذا المعنى (إحياء الله سبحانه للأرض بعد موتها) في السور الكريمة: (النحل الآية ٦٥، العنكبوت الآية ٦٣، الروم الآية ١٩-٢٤-٢٠، فاطر الآية ٢٩، الجاثية الآية ٥، الحديد الآية ١٧).

وكما تموت الأرض وتحيا، تموت القرى والبلاد وتحيا، يقول سبحانه: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ

(١) سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ص١٠٦.

عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ.. ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]، ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ ﴿طَهُورًا ۞ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [الفرقان: ٤٩]، وتكرر ذلك في سور (الزخرف الآية ١١ – ق الآية ١١ – الأعراف الآية ٥٧ – الروم الآية ١٩) وفعل الإحياء – معجزة بحد ذاته – مما لا تملكه يد البشرية: « إنما هي يد الله التي تجري المعجزات وتبث روح الحياة في الموات »[١].

٢ – موت الإنسان:

وبعد هذا التعميم الشامل، عن جميع الكائنات الحية، وخلاله، يتحدث القرآن الكريم بشيء من التخصيص: فيتناول النفس البشرية، مؤكِّدا على وجودها مصاحبة للجسد، وأن الموت – لا محالة – واقع عليهما؛ بمعنى أنها تغادر الجسم الذي سكنته إلى مستقرها في الملكوت الأعلى (وهذا هو موتها) ويعود الجسم رويداً رويداً سيرته الأولى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥]

﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

﴿قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]... فجميع النفوس البشرية – بنص القرآن الكريم – أسيرة قانون الموت، بلا تخصيص أو تمييز وربما يكون هذا المعنى أوضح، حين تبدأ مرحلة التخصيص، بالحديث عن النفس الواحدة، من خلال قضية كلية موجبة، فيعم الفعل كل النفوس: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [لقمان: ٣٤].

هكذا تتكرر الآيات القرآنية بغية استقرار هذه الحقيقة البسيطة الصعبة في النفس

(١) في ظلال القرآن جـ٢٣ ، تفسير سورة يس ص٢٣.

البشرية: «حقيقة أن الحياة في هذه الأرض موقوتة، محدودة بأجل ثم تأتي نهايتها حتما»[١].

«هذا هو الناموس الذي يحكم الحياة، وهذه هي السنة التي ليس لها استثناء.. إنه الموت الكالح نهاية كل حي، وعاقبة المطاف لرحلة الإنسان القصيرة على الأرض»[٢].

ثم تنتقل الآيات الكريمة في هذا الصدد إلى دائرة أقل اتساعا لكي تخصص نفسا بذاتها لا تتجاوز نفوس الرسل والأنبياء، الذين هم المنارة الهادية والأسوة الحسنة، والمثل العليا للبشر تأكيدا لمبدأ المساواة بين الجميع؛ فلا تمييز ولا استعلاء، فالكل أمام الموت سواء.

هذا أبو الأنبياء إبراهيم، يؤمر أن يقول بكل الإقرار والتسليم المطلق فيما تنص الآية الكريمة: ﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٣].

وهذا حفيده من ابنه إسحاق يسجل القرآن الكريم مشهد لحاقه بجناب ربه الكريم: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾[٤] وقد نستطيع أن نصوغ من الآية قياسا من الشكل الثالث:

كلنا يعقوب (أو كل إنسان يعقوب) من حيث البشرية، ويعقوب صائر إلى الموت، فكلنا (أو كل إنسان) صائر إلى الموت.

ذلك أن حضور الموت معناه دنوه، وظهور علاماته وأماراته على الإنسان[٥]. ويجري مثل هذا القياس في كل مواطن خص فيه بالموت نبي.

وتتابع الآيات فتتحدث عن سليمان وما خصه الله به من الملك العريض والصروح الممردة وتسخير الجن والطير والريح، فهل أبعد ذلك كله مجتمعا سهم الموت قيدة شعرة حين صوب إلى مقتل

---

(١) في ظلال القرآن جـ٤ / ١٧٩.
(٢) في ظلال القرآن جـ١٧ / ٥٣٢.
(٣) سورة الأنعام الآية ١٦٢. هذا على سبيل التعميم إذ إن هذا الأمر موجه لجميع الرسم والأنبياء.
(٤) سورة البقرة الآية ١٣٣.
(٥) تفسير النسفى جـ١/ ٩٢.

في سليمان؟ هذا هو القرآن الكريم يجيب: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾(١).

وروح الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم «هذا المسيح عيسى الذي كان آية للعالمين: ميلاده معجزة، وفداؤه معجزة، هو الآخر ينضوى تحت لواء الموت، فيقر منذ بداية مولده بحتمية الموت ﴿وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (٢).

ثم نأتي إلى خاتمة المطاف: خاتم النبيين، والرحمة المهداة للعالمين فنلحظ خطاب القرآن المتكرر له بشأن قانون الموت الساري على البشر أجمعين بل قانون الفناء لكل حادث وأن كل ماله بدء فله نهاية(٣)، والرسول ﷺ مخلوق حادث بعد عدم؛ يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٤).﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (٥) ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾(٦) ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾(٧).

«إن الموت نهاية كل حي، وهو حق على البشر، وأنت يا محمد ميت كما أنهم ميتون، لأن ما وجد على ظهر هذه البسيطة وجد للفناء، والبقاء والخلود لله وحده»(٨).

٣- الموت واجد ضالته في كل مكان وزمان:

من اللفتات القرآنية المستمرة تأكيده على مظاهر حتمية الموت، وأنه واجد ضالته في كل مكان، وكل زمان، ومن كل عمر وجنس ولون. تستوي الأرض والفضاء، والسفر والإقامة، وتهدم الشيخوخة، وميعة الصبا، وبراءة الطفولة ونضارتها، إذا حم الموت، فلا مفر.

---

(١) سورة سبأ الآية ١٤.
(٢) سورة مريم الآية ٣٣.
(٣) في ظلال القرآن جـ١٧ ، سورة الأنبياء ص٥٣٢.
(٤) سورة الرحمن الآية ٢٦.
(٥) سورة الزمر الآية ٣٠.
(٦) سورة الأنبياء الآية ٣٤.
(٧) سورة آل عمران الآية ١٤٤.
(٨) في ظلال القرآن جـ٢٤ ، تفسير سورة الزمر ص١٣٩.

والقرآن الكريم بروعة بيانه الأخاذ يرسم لنا هذه الصورة الرهيبة صورة انقضاض الموت على فريسته، لا يثنيه عنها شيء، مهما أوغلت في التصور والخيال ومهما تقلبت بها الظروف والأحوال. وتترى الصور هكذا:

- ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[١].

فالموت محيط بالإنسان مهما تفنن في التحصن والاختفاء؛ حتى لكأنه هو الذي كان يخاطبه النابغة الذبياني إذ يقول:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع [٢]- ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾[٣].

«إن هناك أجلا مكتوبا لا يستقدم ولا يستأخر، وإن هنالك مضجعا مقسوما لا بد أن يجيء إليه صاحبه فيضجع فيه»[٤].

- «قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم»[٥].

- «قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل»[٦].

ففي هاتين الآيتين الكريمتين حديث صريح عن الفرار من الموت، فنحن بين الموت والقبر بمرقب من هذا، وعلى موعد من ذاك؛ ولا بد مما ليس منه بد.

إن قدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر جميعا من حيث ندري أو لا ندري؛ والموت أحد هذه الأقدار الخافية التي تصنع نهاية الحياة من حيث نتوقع أولا نتوقع ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٧]. هكذا تبدو الحقيقة ساطعة جلية للعيان: أن الموت متواجد معنا في كل لحظة وكل دقيقة

(١) سورة النساء الآية ٧٨.
(٢) الثعالبي : خاص الخاص ص٩٦.
(٣) سورة آل عمران.
(٤) في ظلال القرآن جـ٤/ ١١٢.
(٥) سورة الجمعة الآية ٨.
(٦) سورة الأحزاب الآية ١٦.
(٧) سورة لقمان الآية ٣٤.

ومع كل شهقة من شهقات النفس البشرية.

وليس في وسع أحد أن يجحد حتمية الموت، أو شمول سلطانه، لأنها بداهة العقول الأولى، حتى أن كبار الملاحدة، وجاحدي الربوبية نفسها إنما ينصب إنكارهم هنا على الإحياء بعد الموت، لا على الموت نفسه – وهو قولهم – فيما يحكى عنهم رب العزة:

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[١].

﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾[٢].

«فالحياة في نظرهم هي هذا الشوط الذي يرونه في الدنيا رأي العين جيل يموت، وجيل يحيا فالدهر إذن (فيما يعتقدون) هو الذي ينهي آجالهم ويلحق بأجسامهم الموت فيموتون»[٣].

٤- إسناد حدث الموت للقدرة الإلهية:

لا شك أن هؤلاء المنكرين كذبوا، فالمحيي والمميت هو الله وحده لا الدهر ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[٤]﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٥] ﴿تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾[٦].

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾[٧]﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ۞ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾[٨].

وفي القرآن يسند الفعل أحيانا إلى الله مباشرة، فهو الفاعل القاهر خالق كل شيء

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٣٧.
(٢) سورة الجاثية الآية ٢٤.
(٣) في ظلال القرآن جـ٢٥ ، تفسير سورة الجاثية ص٣٩٢.
(٤) سورة طه الآية ٥٥.
(٥) سورة آل عمران الآية ٢٦.
(٦) سورة آل عمران الآية ٢٧.
(٧) سورة الواقعة الآية ٦٠.
(٨) سورة النجم الآية ٤٤.

الفعال لما يريد – القوة المؤثرة حقيقة في الوجود، المسيطرة أولا وأخيرا [١]، كما رأينا في الآيات السابقة.

وأحيانا يسند الفعل إلى قوى سببية قد نسميها «الملائكة» فقد وكل الله ملائكة بكل الأشياء المخلوقة الظاهرة للعيان والخفية، فكل حركة في العالم فسببها الملائكة، وحركتهم طاعة الله بأمره وإرادته [٢].

فالرب تعالى يدبر أمر العالم، وقد وكل بكل عمل من الأعمال طائفة ومن هذه الطوائف، طائفة مختصة بقبض الأرواح، إذا حان الأجل، فالله سبحانه هو « المدبر أمرا وإذنا ومشيئة، والملائكة هي المدبرات مباشرة وامتثالا»[٣].

ففي صدد الموت يقول المولى سبحانه:﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ**﴾[٤].

ويقول: ﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ**﴾ [٥].

فالرسول الموكل بقبض النفوس وتوفيها هو «ملك الموت» الذي ينفذ المشيئة الإلهية[٦]. هكذا يعلمنا النص القرآني الكريم ويميزه لنا بهذا الوصف.

٥- التحدي بالموت:

ثم يبقى التحدي الكبير، تحدي الموت للإنسان، هذه المواجهة الصريحة بين طرفين، طرف قادر غلاب، وطرف ضعيف مغلوب. وبعبارة أخرى: الذي يصارع الموت، إنما يصارع أسبابه فيما يبدو لأنظارنا القاصرة، أما الموت نفسه فلا يجابه ولا يصارع، فإذا كان هذا موضع التحدي، فمن ذا في وسعه أن يقبله؟ إنه التعجيز المطلق الرهيب هكذا تترى الآيات البينات تطالب الإنسان – إن استطاع – دفع الموت، فإذا قال الرب تعالى: ﴿**قُلْ**

(١) محمد الزيني : ابن القيم ص٨٦.
(٢) ابن القيم : روضة المحبين ص٦١.
(٣) ابن القيم : أقسام القرآن ص١٠٢.
(٤) سورة الأنعام الآية ٦١.
(٥) سورة السجدة الآية ١١.
(٦) في ظلال القرآن جـ٧ / ٢٦٧ ، جـ٢١ / ٥١٦.

﴿فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[١]. خرست الألسنة، وطأطأت الرؤوس، ولا يبقى أمام الإنسان- مهما كان جبروته- إلا الاستسلام. ولا شيء إلا الاستسلام، ليس ثم اختيار: فهذا أروح للنفس، وأهدأ للخاطر، فعلى الإنسان أن يتيقن أنه حادث، وكل حادث فان، هكذا قدر عليه في الأزل، وعليه أن يذعن لقدر الموت قبل أن يراه.

٦- البقاء لله:

فالبقاء لله وحده، الواحد الأحد، واجب الوجود، وواهب الوجود: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾[٢]. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾[٣] كل شيء زائل، وكل شيء ذاهب، المال والجاه، والسلطان والقوة والحياة والمتاع وهذه الأرض ومن عليها، وتلك السماوات وما فيها ومن فيها.وهذا الكون كله ما نعلمه منه وما نجهله.. كله.. كله.. هنالك فلا يبقى إلا وجه الله الباقي متفردا بالبقاء»[٤].هذه هي الحقيقة التي يجب أن تثبت وتستقر في عقول البشر جميعا بلا استثناء:﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[٥].

ثانيا: عند الشعراء:

لا شك أن الشعراء العرب قبل الإسلام وبعده، قد استرعت انتباههم بقوة، ظاهرة الموت، وربما أقض التفكير فيها مضاجعهم؛ ومن ثم عبروا بشعرهم تجاه هذا الحدث الخطير في حياة الإنسان.

لكن الحقيقة أنهم أطالوا الوقوف عند نقطة واحدة، عالجوها بعمق وإطناب أعنى «حتمية الموت» قالوا كثيرا فأجادوا، وعبروا عن قلق نفوسهم، وأرق ليلهم، وأحزان نهارهم، بألفاظ موحية، وصور مشتقة من البيئة، مع روعة المعنى، وابتكار الفكرة.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٨.
(٢) سورة الرحمن الآية ٢٦ ، ٢٧.
(٣) سورة القصص الآية ٨٨.
(٤) الظلال جـ٢٠ / ٣٨١.
(٥) سورة مريم الآية ٤٠.

أما ما رواء ذلك من طبيعة الموت، وماذا بعده؟ والحكمة الإلهية التي تقف وراءه، وما الحلول المطروحة لمواجهة الخوف من الموت، فقلما تطرقوا إليه إلا بصورة عرضية في سياق غير السياق وفي معالجات جزئية اقتضاها المقام.

وسوف نحاول في عجالة سريعة أن نستعرض هذا الموقف مستعينين ببعض النماذج من شعرهم.

١- امرؤ القيس:

نبدأ بشاعر ماجن مغامر اشتهر في صدر حياته بحياة اللهو والدعة، ومعاقرة الخمر، والعيش في أحضان الغانيات؛ وهو – على ذلك – تشغل فكرة الموت حيزا كبيرا من تفكيره، من حيث هو شاعر مرهف الحس، حاضر الخاطر، على درجة عالية من الوعي بأحداث مجتمعة، من منطلق أنه إنسان وثيق الوشائج بكل ما حوله من تجارب الحياة الحلوة والمرة، الجادة والهزلية فليس امرؤ القيس هذا، وفي نظر نفسه هو إلا ورقة – من ملايين الأوراق – في شجرة الحياة التي تتساقط كل يوم في مهب رياح الموت العاصفة، ثم تندثر في أرض الله الواسعة وتصير ترابا: استمع إليه إذ يقول:

إلى عرق الثرى وشجت عروقي ... وهذا الموت يسلبني شبابي
ونفسي، سوف يسلبها وجرمي ... فيلحقني، وشيكا، بالتراب[١]

وقد تقترن فكرة الحتمية « حتمية الموت » بتفهمه لكرور الأيام والليالي، فما هو بعيد في الزمان سوف يصبح حاضرا نعيشه، وهنا يبرز الموت مع حتميته في إطاره الخاص، فهو ليس غربة في المكان، ولكن غربته من نمط فريد، فمن يذهب لا يعود، وفرقته لا يلتئم لها شمل أبدا:

أجارتنا ما فات ليس يؤوب ... وما هو آت في الزمان قريب
فليس غريبا من تناءت دياره ... ولكن من وارى التراب غريب[٢]

(١) ديوان امرئ القيس ص٧٢.
(٢) ديوان امرئ القيس ص٧٩.

وليس حتما أن يكون قوله: «ما فات ليس يؤوب» مما ينم عن إنكاره البعث شأن معظم العرب قبل الإسلام، ولكنه احتمال قائم، ولا يفوت امرؤ القيس أن يلتمس السلوى في ديمقراطية الموت، ونزوله بساحة الجميع: سواء الفقير والغنى،الأحمق والعاقل كمنجل يحصد أعناق البشر.

تلك المنايا فما يبقين من أحد يكفتن حمقى وما يبقين أكياساً[١].

٢- طرفة بن العبد[٢]:

وهذا شاعر آخر يشترك في كثير من الصفات مع امرئ القيس؛ إذ إنه عاش حياة اللهو والبطالة وصورته المرسومة من خلال شعره أنه: تمتع بيومه، وشرب كأس المتعة حتى الثمالة دون أن يفكر فيما يحمله له الغد، من منطلق إيمانه، أن الغد غير مأمون، وأن الموت يترصد خطانا فحياته شبيهة في كثير من نواحيها بما يعزى خطأ إلى فلاسفة الأبيقورية[٣]من أنهم عاشوا حالة من « الأتراكسيا Atraxi» أي التحرر من القلق والخوف لبلوغ اللذة القصوى، وتجاهل أحداث الحياة وأحزانها، والتمتع بالمتاح منها مهما كان ضئيلا.

في أشعار طرفة بن العبد فكرة مؤداها: أن أيامنا مهما بدت عريضة فهي قليلة، وهي أبدا تتناقص وتضمحل يوما بعد يوم، كالكنز في يد أخرق لا يتنبه إلى قيمته إلا عندما يضيع منه. وعنده أن موقف الإنسان من الموت، كموقف الحيوان المشدود إلى حبل طويل يتيح له حرية الحركة والتصرف إلى حد ما، وبهذا الحبل نفسه يقاد في الوقت المناسب إلى حتفه.

من هذا الموقف المتفهم لقصر الأجل، وحتمية الموت، انطلق الشاعر يعب من لذة

---

(١) ديوان امرئ القيس ص١٢٠ ، يكفتن :يمتن.الأكياس : الواحد كيس ضد الأحمق.

(٢) ولد في البحرين في بيت كريم الأصل ، ونشأ يتيماً فانصرف إلى اللهو ومعاقرة الخمر ، فأنفق ماله وقد مدح ملك الحيرة عمرو بن هند ويقال إنه قتله سنة ٥٦٤ م وقد تميز بالذكاء وسرعة الخاطر. ترجمته في (بروكلمان : تاريخ الأدب العربي جـ/ ٩٢) ، طه حسين : حديث الأربعاء الفاخوري :تاريخ الأدب العربي ص ٩٧

(٣) تنتسب الفلسفة الأبيقورية إلى مؤسسها أبيقور الذي ولد بجزيرة ساموس عام ٣٤١ق.م وتوفى عام ٢٧٠ق.م. (يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص٢١٤. أميرة مطر : الفلسفة عند اليونان ص٣٧٩).

يومه، ضاربا من نفسه المثل لمن شاء، قبل أن ينقضي اليوم إلى غد مجهول العواقب، وظل ينحى باللائمة على من يمنعه من شهوة اللذات، والعب من متع الحياة، ما دام الخلود فيها وهم وسراب. هاهو ذا يبشر بمذهبه المنحل:

ألا أيهـذا اللائمـى أحضر الـوغى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي
فـإن كنـت لا تسـتطيع دفـع منيتـي ... فـدعنى أبادرهـا بـما ملكـت يـدى
أرى العـيش كنـزا ناقصـا كـل ليلـة ... ومـا تـنقص الأيـام والـدهر ينفـد
لعمـرك أن المـوت مـا أخطـأ الفتـى ... لكـالطول المرخـى وثنيـاه باليـد[١]

فإن لم يكن التمثيل بالحبل المشدود، لا يوضح أبعاد الصورة، فالتمثيل بالمنقب الخارق، الذي يتبع خطوات الإنسان في كل مكان، فتطوى له المسافات ولا يحجبه صولجان بشر: إنه الناموس الإلهي الذي لا بد من النزول على حكمه:

لتنقبن عنى المنيـة ... إن الله ليس لحكمه حكم[٢].

٣- كعب بن زهير[٣]:

لهذا الشاعر بيت شعر في موضوعنا اشتهر كثيرا في الشعر العربي. ذلك أنه حينما جاء مسلما، واحتال للحصول على الأمان لنفسه من الرسول ﷺ، أنشده قصيدته المشهورة التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول[٤]

فكان فيها هذا البيت السائر:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوما على آلة حدباء محمول[٥].

---

(١) ديوان طرفة ص٣٢-٣٤.
(٢) المصدر السابق ص٨٣.
(٣) أبوه زهير بن أبي سلمى، من فحول الشعر في الجاهلية، تلقى الشعر عن أبيه وبرع فيه، ثم دخل الإسلام بعد فتح مكة وحسن إسلامه. ترجمته في: بروكلمان: تاريخ الأدب العربي جـ١ / ١٥٦، شوقى ضيف: العصر الإسلامي ص٨٥، حنا الفاخورى: تاريخ الأدب العربي ص٢٢٣.
(٤) الأغاني جـ١٧ / ٨٧، تحقيق على البجاوى، طبعة الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٠م.
(٥) شوقى ضيف: المصدر السابق ص٨٦.

فجمع فيه أو كاد- بإيجاز شديد، وكلمات منتقاة، وصور بلاغية- كل أشعار الشعراء، وأقوال الحكماء، وتأملات الفلاسفة- حول حتمية الموت.

إنه يبدأ بقضية كليه تشمل كل من ولد أو سيولد في هذه الحياة العاجلة إذ الأنثى هنا شاملة لأنثى الإنسان وغيره من سائر الحيوان: هذا المولود مهما عاش في الدنيا، وتمتع بالصحة – إن تمتع، وامتد به الأجل – إن امتد وطالت سلامته – إن طالت.. هذا الإنسان يوماً ما، معلوماً ومحدداً وأكيداً، سوف يوضع جثة هامدة على تلك « الخشبة » المخصصة لحمل الموتى ثم يحمل على الأعناق أو غير الأعناق، ويذهب به إلى مستقره الأخير.

وهذه صورة البشر جميعا.

٤- مالك بن الريب [١]:

لمالك بن الريب وقفة تستدر الدمع، وتستفز الفؤاد،وتدعو الإنسان لمشاركته في أحزانه، والسماع لتأوهاته الأخيرة، ومسح دموعه وهي تسيل على خده.

فهو يقف وجها لوجه أمام هذا القادم غير المرغوب فيه، والزائر المرعب يبكي نفسه، مصورا طبيعة الموت، موصيا أصحابه بما يفعل به بعد صعود روحه إلى بارئها، عارضا من خواطره الثكلى صوراً حزينة من ذلك الجزع الضارع الذي يتملك بعض النفوس المرهفة في مثل حاله هذه. فهو يطلب منهم تهيئة السدر والكفن، ويرجوهم أن يوسعوا في لحده بعد أن يحفروه برماحهم الصلبة.

وإذا كانت هذه القصيدة زفرة حارة، ودمعة ساخنة على خد مالك بن الريب، إذ تميزت بخصوصية واضحة، وتجربة فريدة عاشها الشاعر، إلا أنها ترسم صورة دقيقة للنفس البشرية، وأخص أحاسيسها، وتعبر عن جميع المشاعر حينما يقف الإنسان – أي إنسان بلا تحديد في الزمان والمكان – في خضوع مطلق، واستسلام كامل تحت جناح الموت الرهيب.

---

(١) هو مالك بن الريب بن حوط بن قرط بن ربيعة ، وكان من أجمل العرب جمالا وأبينهم ، تاب عن قطع الطريق وانضم إلى جيش سعيد بن عفان ، حتى قتل بخراسان ، على اختلاف الروايات في ذلك (ذيل الأمالى والنوادر ص١٣٥. الأغاني جـ٢٢ / ٢٨٦).

يقول: وقد لطمه الموت لطمة ما بعدها لطمة، ولا شفاء.

تـذكرت مـن يبكـى عـلى فلـم أجـد ... سـوى السـيف والـرمح الردينـى باكيـا
فيـا صـاحبى رحـلى دنـا المـوت ... فـانزلا برابيـة أني مقـيم ليالياً
أقـيما عـلى اليـوم أو بعـض ليلـة ... ولا تعجلانـى قـد تبـين شانياً
وقومـا إذا مـا اسـتل روحـى فهيئـا ... لي السـدر والأكفـان عنـد فنائياً
وخطـا بـأطراف الأسـنة مضـجعى ... وردا عـلى عينـى فضـل ردائياً
ولا تحسـداني بـارك الله فـيكما مـن ... الأرض ذات العرض أن توسع إليا [1]

٥- أبو العتاهية [2]:

هذا رجل زاهد، مر بتجربة حية، حولته من طريق المجون والهوى إلى طريق الاستقامة السوي، فعزف عن المحرمات، وأقبل على التمدح بالزهد والتهوين من شأن الدنيا، والتخويف من بغتات الموت.

لقد تأمل أبو العتاهية كثيرا، وأوغل في تعمق فكرة الموت، حتى لقد احتلت مساحات كبيرة من شعره، وأصبح ديوانه في معظمه كأنه مرثية طويلة للكرة الأرضية. ومن ثم فقد قدم لنا صوراً لحتمية الموت تتعدد في قصائده قصيدة بعد أخرى، ويدور معظمها حول فكرة قصر الحياة، وأنها ليست إلا قنطرة إلى عالم آخر، لا بد من قطع مسافاتها، والانتقال عنها برمتها.

ويتميز شعر الموت عند أبى العتاهية؛ بصدق النبرة، وجدة الخاطر وروعة الصورة، ووضوح الفكرة، حتى لنكاد نلمس الدمعة وهي تتساقط على خده ونسمع وجيب قلبه المضطرب، ونرى حزن الأيام الذي تراكم على منكبيه، فتركته شيخاً مهموماً محطماً، يائساً من الدنيا، يدعو الناس إلى اليقظة من غفلتهم كنبي نبذه قومه، وصائح في البرية يصيح: يا ابن الأرض، أصغ إلي،الق عنك أغلالها سوف تمضي كما مضت أوائلك، وسوف تتحول كما تحولوا إلى تراب .....!

(١) القالى : ذيل الأمالى والنوادر ص١٣٦ ، والسدر : ورق من شجر النبق يغسل به الميت.
(٢) ديوان أبى العتاهية ص٣٤.

يتحسر أبو العتاهية على العمر الذي مضى وضاع، ويندب أيام القوة والفتوة التي ولت واندثرت،كل ذلك في غير طائل؛ والموت حثيث في الطلب، وربما أزفت الآزفة، وأظلت النهاية:

مضى عني الشباب بغير ودى ... فعند الله أحتسب الشبابا

وما من غاية إلا المنايا ... لمن خلقت شبيبته وشابا[١]

ويتأمل أبو العتاهية حصار الموت المحكم حول البشرية العاجزة، فلا يجد لها مهربا وحيلة.

والإنسان إذا حان حينه، أعيته الوسائل في مواجهة الموت، فلا فكاك منه ولا حرية من قيده الثقيل، ولا دواء يشفى من دائه، الذي أعيى أعظم الأطباء فكل الحصون مفتحة له أبوابها، وكل الكئوس مترعة بمذاقه المر الكريه، فليشرب الشارب طوعا أو كرها، كما فعل سقراط الحكيم، وكما فعل غيره من الناس ويفعلون، حتى الملوك والأباطرة، والطغاة والجبابرة، فليكونوا عظة وعبرة، وعلينا أن نتقدم إلى طريق الموت غير هيابين، وننحى الآمال الكاذبة التي قد تعشش في بعض الرؤوس الفارغة أو المخدوعة. يقول أبو العتاهية في أبيات متناثرة، من قصائد عدة:

حيل ابن آدم في الأمور كثيرة ... والموت يقطع حيلة المحتال[٢]

يهرب المرء من الموت وهل ... ينفع المرء من الموت الهرب[٣]

الموت حوض لا محالة دونه ... مر مذاقته كريه مشربه[٤]

يعز دفاع الموت عن كل حيلة ... ويعيا بداء الموت كل دواء[٥]

كم من ملوك مضى ريب الزمان ... بهم فأصبحوا عبرا فينا وأمثالا[٦]

---

(١) ديوان أبى العتاهية ص٣٤.
(٢) ديوان أبى العتاهية ص٣٢٧.
(٣) المصدر السابق ص٤٣.
(٤) المصدر السابق ص٥٩.
(٥) المصدر السابق ص١٣.
(٦) المصدر السابق ص٣٤٣.

هـو المـوت الـذي لا بـد منـه فـلا يلعـب بـك الأمـل الكـذوب[١]

وفي قصيدة أخرى يعبر أبو العتاهية عن الأفكارنفسها؛ ولكن بصور جديدة مبتكرة: فالليل قريب من النهار، والآخرة ملاصقة للدنيا، والموت يجاور الحياة، والفناء يعقب البقاء، ودورة الزمان لا تني ترمي بسهامها من تريد فلا تخطئ البتة، والإنسان كالحائر بين كل هذا يمنى نفسه بطول البقاء، على ما قد يكون فيه من ألم ومرارة، يصطنع الصبا اصطناعا من حطام الشيخوخة ويدارى وهن العظم، واشتعال الرأس شيبا ... و ... والموت الرابض في كل مكان يفترس الصبا والشباب والكهولة والشيخوخة، وأمنا الأرض فاردة ذراعيها تستقبل أبناءها فلها أيضا نصيب وأي نصيب:

إن الفنـاء مـن البقـاء قريـب إن الزمـان، إذا رمـى لمصـيب
وأراك تلـتمس البقـاء، وطولـه لـك مهـرم، ومعـذب، ومنيـب

ألححت في طلب الصبا وضلاله والموت منك، وإن كرهت قريب
والموت يرتصد النفوس، وكلنا للموت فيه، وللتراب نصيب[٢].

وربما وقف أبو العتاهية متسائلا في شعره عن آبائه وأجداده، وآباء أجداده، أين ذهبوا؛ يتساءل عن البشرية الماضية: أتت إلى الحياة وعاشت، وتمتعت أو تعذبت ثم ذهبت عابرة من شاطئ المعلوم إلى شاطئ المجهول؛ ثم يتجه إلى نفسه فيلقي عليها باللائمة، لأنها تعلقت بأمل السلامة الكاذب، وتظل كاللاهية تغمض العين عن هذه النذر: عن هذا التاريخ الطويل من العذاب الذي طالما استحالت فيه البسمات إلى دموع، وصيحات اللذة إلى صرخات الألم. إن النفس البشرية تخادع ذاتها، وترى ركب الفناء يمضي ولا تريد أن تعتبر: بدءا بالجنين في بطن أمه، وانتهاء بالشيخ في أرذل عمره، ومروراً بالرضيع على صدر أمه، والغلام اليافع في ملاعبه، والشاب في مراتع لهوه والكهل في سنى نضجه، إنها ديمقراطية الموت! وليس على الموت من مستعتب. في هذا يقول أبو العتاهية:

(١) المصدر السابق ص٣٦.
(٢) ديوان أبى العتاهية ص٤٠-٤١.

«يا نفس أين أبي، وأين أبو أبي وأبوه؟ عدى، لا أبالك واحسبي أفأنت ترجين السلامة بعدهم، هلا هديت لسمت وجه المطلب.

قد مات ما بين الجنين إلى الرضيع إلى العظيم إلى الكبير الأشيب [١]».

وقد اشتهر أبو العتاهية بوعظه للخلفاء،لا سيما الرشيد وابنه المأمون فقد كان محببا إليهم مقربا إلى قلوبهم،ومما وعظ به الرشيد:

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس وإن تمتعت بالحجاب والحرس فما تزال سهام الموت نافذة في جنب مدرع منها ومترس.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس[٢].

في اللوحة السابقة يرسم أبو العتاهية صورة الموت لا يأمنة الإنسان لحظة واحدة، فقد يكون كامناً بين طرفة عين واخرى أو شهقة وزفرة، ومهما تحصنت أيها الإنسان فالدروع لا تجدي، والتروس لا تفيد، لأن سهام الموت سهام نافذة لا يردها شيئ.فلا تأمل في النجاة، ولم تأخذ بأسبابها، وهل تجري السفينة على ظهر لا يحملها؟

ولما سأله المأمون أن يسمعه أحسن ما قاله عن الموت أنشده:

أنساك محياك المماتا فطلبت في الدنيا الثباتا
أوثقت بالدنيا وأنت ترى جماعتها شتاتا
وعزمت منك على الحياة وطولها عزماً بتاتا
يا من رأى أبويه فيمن قد رأى كانا فماتا
هل فيهما لك عبرة أم خلت أن لك انفلاتا
ومن الذي طلب التفلت من منيته ففاتا
كل تصبحه المنية أو تبيته بياتا[٣]

(١) ديوان أبي العتاهية ص٤٥.
(٢) ديوان أبي العتاهية ص ٢٣٠.
(٣) ديوان أبي العتاهية ص٢٩٠

وهذه صورة رائعة رسمها أبو العتاهية لحتمية الموت، وحصاره للنفوس كل آونة.

المـوت لا والـداً يبقـى ولا ولـداً ... ولا صـغيراً ولا شـيخاً ولا أحـداً
للمـوت فينـا سـهامٌ غـير مخطئـة ... من فاته اليوم سهماً لم يفته غداً[١]

وإليك هذه الصورة الأخيرة التي رسم فيها أبو العتاهية مأساة البشرية، فهي تلد من لا بد له من الموت، فكأنما تلده من أجله، وتبنى ما لا بد له من الخراب، فكأنما تبنيه من أجله الكل زائل وفان، ولذا يتعجب أبو العتاهية من سعي الإنسان للبناء وعمارة الدنيا. ثم يتجه بالخطاب إلى الموت: أيها الموت لا مهرب منك فإنك إذا أتيت لا تجامل أحدا فترخي له العنان ولو قليلا، ولا تظلم أحداً فتنقصه من عمره ولو ذرة لأنك رسول العناية الإلهية.

لـدوا للمـوت، وابنـوا للخـراب ... فكلكمـوا يصـير إلى تبـاب
لمـن نبنـي، ونحـن إلى تـراب ... نصـير، كـما خلقنـا مـن تـراب
ألا يـا مـوت! لم أر منـك بـدا ... أتيـت، ومـا تحيـف ومـا تحـابي[٢]

٦- أشعار متفرقة:

ونختم الحديث عن حتمية الموت في الشعر العربي، بهذه الوقفات الشعرية، والتأملات الفلسفية التي تفتقت عنها عقول الشعراء.

ولنستمع لهذا الحوار الفلسفي الذي يعبر عن إحساس الإنسان المخيف تجاه الموت، وشعوره المستمر أنه حالة طارئة داخل الكون وسوف يمضي إلى بعيد.

تحكى الروايات[٣]، أن عدي بن زيد، صحب النعمان بن المنذر في خروجه يوما للهو، بعد أن اجتمع الخدم والحشم، وحضرت كل أسباب المتعة فلما سار الركب تحدوه الآمال في قضاء يوم مترع بالمسرة واللذة، قال عدي للنعمان وهو يبصر شجرة وحيدة في الفلاة: أتدري ما تقول هذه الشجرة؟ فرد عليه النعمان وهو يلهو بفرسه، مستخفاً بسؤاله وما

(١) ديوان أبي العتاهية ص ١٣٠
(٢) ديوان أبي العتاهية ص٤٦.
(٣) المبرد : الكامل جـ٢ / ٩١ ، ولعدي بن زيد ترجمة مطولة في خزانة الأدب للبغدادي جـ١ / ٣٨١-٣٨٦

تقول؟ قال عدي – من شعر نفسه – إنها تقول:

من رآنا فليحدث نفسه ... أنه موف على قرن زوال
وصروف الدهر لا يبقى ... لها ولما تأتي به صم الجبال
رب ركب قد أناخوا حولنا ... يمزجون الخمر بالماء الزلال
عمروا الدهر بعيش حسن ... قطعوا دهرهم غير عجال
ثم أضحوا عصف الدهر بهم ... وكذاك الدهر حالاً بعد حال

إن الشجرة تكتب رسالة بليغة، لكي يقرأها من يطالع خضرتها، ويسر بمنظرها؛ أن يتذكر دائما أنه يعيش في دنيا زائلة، متقلبة الأحوال، تأتي بالنائبات أضعاف ما تأتي بالمسرات.

وفي هذه الرسالة تسخر الشجرة من أفواج الركبان السعداء – بادي الرأي – كثيرا ما نزلوا في كنفها، وتفيأوا ظلالها، وتذوقوا ثمارها، واحتسوا كئوس الخمر ممزوجة بقليل من الماء الزلال – وهو شعار أولئك العابثين الذين كانوا يعبُّون نعيم الأيام ولذاتها عباً – وفي غمضة عين تنقلب عليهم، وتشيح عنهم، وتعصف بهم عصفا، فتلقي بهم في لحد مظلم، فإذا هم أثر بعد عين، وهكذا الأيام تتغير من حال إلى حال.

وفي صورة أخرى من صور الشعر العربي يقول أمية ابن أبي الصلت:

ومن لم يمت عبطة يمت هرما ... للموت كأس فالمرء ذائقها[1].

نعم أيها الفيلسوف من لم يمت بعلة ظاهرة مات شيخا، فالموت كأس مر مذاقها وكلنا سوف نتجرعها.

والخليفة الرابع – من خلفاء المسلمين – يقف باكيا أمام موت فاطمة زوجته وابنة أعظم الناس متأملا مشهد البشرية إزاء الموت، فكل حبيبين إلى افتراق وكل مقيم إلى نزوح، ولا دوام إلا للواحد القهار. أصغ إليه كيف يقول:

---

(١) المبرد: الكامل جـ١ / ٣٤٣ (وترجمته في الأغاني جـ١٧ / ٣٠٣ وما بعدها بروكلمان: تاريخ الأدب العربي جـ١ / ١١٣).

لكـل اجـتماع مـن خليلـين فرقـة وإن الـــذي دون الفـــراق قليـــل
وإن افتقـادي واحـدا بعـد واحـد دليـــل عـــلى ألا يـــدوم خليـــل[١]

هذا المعنى نفسه، والمعاني السابقة تكررت وتكررت في أشعار عربية كثيرة، نسوق منها نماذج مختصرة:

قالت ليلى الأخيلية ترثي حبيبها توبة:

فكل جديد أو شباب إلى بلى وكل امرئ يوما إلى الله صائر[٢]

وقال أبو ذؤيب الهذلي[٣](ت ٦٤٦م)، وهو يرثي أبناءه، بعد أن خاض تجربة موتهم؛فأحرقت قلبه وحطمت جسمه، وثكلت نفسه، وتركته، قلبا ملتاعا ودمعة حائرة في عين يتيم، وشبحاً هائماً يناجي الأحبة الذين مضوا وخلفوه وحيداً. بعد أن عاش وفياً لهم، وسدا منيعا يدفع عنهم غائلة الأيام وصروف الليالي، ثم هجم وحش الموت بأنيابه الكاسرة، فتركهم أشلاء ممزقة، فلا قوة تمنعه، ولا أحجبه تصرفه، ولا تعاويذ تصده، ولم يبق له إلا التوجع والأنين، وعتاب الأيام:

أمـــن المنـــون وريبهـــا تتوجـــع والدهر ليس بمعتب على من يجزع
ولقـــد حرصـــت بـــأن أدافـــع عـنهم فـإذا المنية أقبلـت لا تدفـــع
وإذا المنيـــة أنشـــبت أظفارهـــا ألفيـــت كـــل تميمـــة لا تنفـــع[٤]

وقال الفرزدق[٥](ت١١٤هـ) يرثي وكيع بن أسود، أحد بني غداته بن يربوع:

---

(١) الكامل جـ٤ / ٣٠.
(٢) المصدر السابق / ٩٠.
(٣) هو خويلد بن خالد الهذلي النزاري ، ممن أدرك الجاهلية ثم أسلم ، سكن المدينة واشترك في الفتوح ، وأدرك خلافة عثمان (البغدادي : خزانة الأدب جـ١/ ٤٢٢ ، حنا الفاخوري : تاريخ الفلسفة العربية ص٢٤٠ ، بروكلمان : تاريخ الأدب العربي جـ١/ ١٦٩).
(٤) الثعالبي : خاص الخاص ص١٠٤.
(٥) هو أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة الملقب بالفرزدق ، ولد في البصرة في بيت أصل وشرف ، لكنه نشأ فاسقاً ، واتسمت حياته بالاضطراب (بروكلمان : تاريخ الأدب العربي جـ١/ ٢٠٩ حنا الفاخوري : المصدر السابق ص٢٨٢).

فصبرا تميم إنما الموت منهل يصير إليه صابر وجزوع [١]

ويقول أبو نواس [٢](ت ١٩٨هـ):

ألا يا ابن الذين فنوا وبادوا أما والله ما ذهبوا لتبقى [٣]

ومن قصيدة لأعشى باهلة رثى المنتشر بن وهب يقول:

عشنا بذلك دهرا ثم فارقنا كذلك الرمح ذو النصلين ينكسر
لا يأمن الناس ممساه ومصبحه من كل أواب وإن لم يأت ينتظر [٤]

ومن مرثية ابن مناذر (كان رجلا عالما مقدما، وشاعرا مفلقا، وخطيبا) يرثي عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفي:

أين رب الحصن الحصين بسوراء ورب القصر المنيف المشيد
شاد أركانه وبوبه بابي حديد وحفه بجنود
فرمى شخصه فأقصده الدهر بسهم من المنايا سديد
ثم لم ينجه من الموت حصن دونه خندق وبابا حديد
وملوك من قبله عمروا الأرض أعينوا بالنصر والتأييد
وأرانا كالزرع يحصده الدهر فمن بين قائم وحصيد
وكأنا للموت ركب مخبون سراعا لمنهل مورود [٥]

***

(١) المبرد : الكامل جـ٤ / ٨٤.
(٢) ولد الحسن أبو نواس في الأهواز عام ١٤٠هـ، وكانت طفولته معذبة ، أخذ العلم من علماء البصرة ، وحصل ثقافة واسعة ، اتصل بالبرامكة وآل الربيع والرشيد واتسمت حياته باللهو والشراب والمجون. (حنا الفاخوري : المصدر السابق ص٣٨٧ وأيضا بروكلمان : تاريخ الأدب العربي جـ٢ / ٢٤).
(٣) المبرد : الكامل جـ٢ / ١٦.
(٤) المبرد : الكامل جـ٤ / ٦٦ وأيضا ، أورد البغدادي في خزانة الأدب جـ١ القصيدة كاملة – مع شرح لها وبترتيب آخر لأبيات القصيدة.
(٥) المبرد : الكامل جـ٤ / ٦٣-٦٤.